خالد محيى الدين (٢)

ونعود إلى فارسنا وهو يحاول أن ينهض بمعارفه وأن يعد نفسه لكل الاحتمالات

انتسب إلى كلية التجارة .. وعمل فى إدارة التدريب الجامعى .. ليدرب الطلاب الجامعيين على الخدمة العسكرية ليتخرجوا كضباط احتياط .. ومع تصاعد الأحداث الفلسطينية أخذوا فى تدريب آلاف المتطوعين العرب الذين كانوا يستعدون للمشاركة فى القتال .. وفى هذه المرحلة التقيت بياسر عرفات ، كان يحضر طوابير التدريب ، وكان آنذاك طالباً بكلية الهندسة . كان عرفات نموذجاً للجندى الجاد الملتزم ، الراغب فى التعرف وبأسرع ما يمكن على مختلف الفنون العسكرية فتقاربنا .. وأذكر أننى أركبته معى فى السيارة لأوصله إلى مكان ما وتحادثنا .. فجأة قال لى : تعرف ياحضرة الضابط إنك بتتكلم زى التقدميين .. واستوعبت الدرس ، وعرفت كيف يمكن أن أدير حواراً دون أن أكشف اتجاهى ".

.. قليلون هم الذين يشاهدون لقاء خالد بعرفات ، وحتى بعد أن أصبح عرفات رئيساً يشد الرئيس عرفات قامته ويحيى ضابطه القديم مقدماً التحية العسكرية .

× فى النصف الثانى من عام ١٩٤٩ ، وفى بيت جمال عبد الناصر .. التقت مجموعة من الضباط فى غرفة الصالون : جمال ، عبد المنعم عبد الرؤوف ، كمال الدين حسين ، حسن إبراهيم ، خالد محيى الدين .

قال جمال : أنا معايا عبد الحكيم عامر لكنه معتذر اليوم ،وقال إنها الخلية الأولى لتنظيم الأحرار.

وفى عام ١٩٥٠ التقى خالد من جديد بأحمد فؤاد وكان قد أصبح قاضياً ، ورتب لقاء بين أحمد فؤاد وبين عبد الناصر قال عنه عبد الناصر : " راجل كويس ومعقول ".

وهكذا بدأ التعاون بين الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) ويمثلها أحمد فؤاد وبين جمال عبد الناصر.

الخلية الأولى كانت موزعة على الأسلحة المختلفة مشاة ، مدفعية ، طيران .. " وخالد فرسان " وهكذا أصبح ضابط الفرسان الشاب هو الأب الروحى للحركة الوطنية والثورية فى سلاح الفرسان .

بعد فترة كان التنظيم يضم ٣٠ ضابطاً أو أكثر قليلاً منهم ١٣ أو ١٤ من الفرسان تحت قيادة خالد ، وبدأوا فى إصدار منشوراتهم ، يحتاجون الآن إلى رونيو ، وآلة كتبة ، ووسيلة للتوزيع .. فعلوها مرة أو مرتين ، ثم اكتشفوا حاجتهم إلى خبرة العمل السرى .. جمال وخالد اتفقا مع أحمد فؤاد أن تقوم " حدتو " بطباعة المنشورات وأن يقوم ضباطها بتوزيعها .

وفى سبتمبر ١٩٥١ أعد خالد أول وثيقة أساسية لثورة يوليو " أهداف الضباط الأحرار " كتبها بخطه ، عرضها على لجنة القيادة ، ترددت القيادة ، ثم اتفقوا أن تظل النسخة الوحيدة بخطه محفوظة لديه تمر ليقرأها أعضاء التنظيم الجدد ثم تعود إليه .

وفى الساعة الثانية بعد ظهر ٢٢ يوليو التقت " لجنة القيادة " لتعقد اجتماعها الأخير . إنها تعد الآن خطة التحرك . تم اللقاء فى بيت خالد . عرض زكريا محيى الدين خطة السيطرة على القوات المسلحة والسيطرة على الوطن .. الثالثة والنصف انتهى الاجتماع .. واتفق على كلمة السر " نصر ".

سألته : " هل كنت خائفاً وأجاب " ولا قطرة واحدة من الخوف .. الحماس لفنا جميعاً ونسينا كل خوف ".

هو غير خائف فماذا عن مدام سميرة ؟ وكانت تحمل معها وثيقة " أهداف الضباط الأحرار " وتتحمل المخاطرة ، تعرف دون أن تسأل ودون أن تلح بالسؤال عن أية تفاصيل، أو أن تشعره بالحرج تقبلت الوضع حباً فى خالد .. وحباً فى الوطن .

كانت ابنتهما سميحة مريضة ، لابد أن يراها الطبيب . لكن لا وقت لديه . وحتى هذا تحملته مدام سميرة .. بعد الغذاء وبلا مقدمات قال لها : " سأخرج فى الثامنة ، وإذا لم أعد فى الصباح يكون شيئاً خطيراً قد حدث .. إما أن أموت أو سأعود منتصراً " .

حتى كلمات مثل :" شئ خطير " " أموت " .. انتصر " لم تدفعها للخوف أو التردد .. إجابتها كانت " إن شاء الله حترجع بالسلامة " .

.. وهكذا تكمن البطولات لتختفى فى طيات أحداث كبيرة .. فتنسينا مواقف صعبة .. وصلبة .

سيطر خالد بقواته على الموقع الحاكم فى شارع الخليفة المأمون .. هناك تساقط فى يده عديد من قيادات الجيش ، كانوا يسرعون بعد أن تم استدعاؤهم لمواجهة الحركة .. فوقعوا ببساطة فى يد الحركة .

" مازلت أذكر أن واحداً منهم إندفع نحوى قائلاً : ياحضرة الضابط من فضلك عربية توصلنى للسلاح لأن هناك تمرد . فقلت باسماً : " آسف أصل إحنا التمرد "

.. ويأتى الصباح .. ليشهد فجر انتصار مصر ..

فجأة تذكر مدام سميرة وسميحة .. دق التليفون رفعت السماعة ، الاثنان نطقا فى صوت واحد "مبروك " فقد سمعت البيان من الاذاعة .

لم يعد بعد مجرد ضابط ، أصبح واحداً من الحكام .

.. ووقع الخلاف مع رفاق الأمس .

خالد وضباط القيادة أصبحوا حكاماً كل ما طرأ عليه " سيارة جيب "

ولكن .. كيف يحكمون ؟ اختلفوا ، البعض كان نهماً للسلطة والنفوذ ، والبعض كان يرى أنه الأولى والأجدر بالحكم ، والبعض أدارت تعقيدات الموقف رأسه لكنهم جميعا ظلوا فى قارب الوطن .

صوت واحد ظل منسجماً مع ضميره .. وفكره .. ومع ماعاهد نفسه عليه .. خالد ورجال سلاح الفرسان صمموا على أن الديمقراطية .. هى مفتاح انطلاق الوطن .

بدا صوتهم نشازاً وسط صخب " العسكرة " ، لكنه كان متماشياً ومنسجماً مع تطلعات الشعب .

اختلف بشرف مع رفاق المعركة .. وعندما تهدد الوضع باحتمال التصادم ، وانقسام الجيش آثر التراجع . وأبعدوه . وتقبل النفى بعيداً عن الوطن . دفع ثمن تمسكه بالمبدأ .. والديمقراطية . ترى ماذا لو أن رفاقه وافقوا على التمسك بالديمقراطية .. هل كنا سنشهد ما آلت إليه ثورة يوليو فى نهاية الأمر ؟

* * *

لا يعرف التاريخ ولا يعترف بكلمة " لو أن " .

لو أن نابليون لم يهزم فى ووتر لو.

لو أن محمد على لم يخضع لضغوط أوروبا .

لو أن عرابى ..

لو أن سعد زغلول ..

ولكن " لو أن " محددة تظل تلح على . رغم أننى أحذر تلاميذى فى فصول التاريخ من استخدامها ." ماذا لو أن " خالد تهاون قليلا ، سكت قليلا عن التجاوزات ، وعن تشدده فى المطالبة بالديمقراطية .. وبقى .. فى مجموعة الحكام .. وبقى حتى نال السلطة كلها ثمناً لصمته .

ولكن .. من يتصور أنه كان بإمكان خالد محيى الدين أن يفعلها ويتناسى عطر دراويش النقشنبندية واعتبارهم أن التقرب إلى الشعب هو تقرب من الله .. وأن خدمة البشر هى أرقى أشكال التعبد ، من يتصور أنه كان بإمكانه أن يفعلها ويخذل مدام سميرة .. التى وقفت إلى جواره فى هدوء شجاع .. بل ويخذل ابنته سميحة بعد أن تركها مريضة ليذهب كى يصنع لمصر ثورة .

من يتصور أنه كان بامكانه أن يفعلها ويخذل كل ما آمن به من فكر .. ومعتقد .. " ماذا لو أن " ليس لها مكان فى خريطة خالد محيى الدين .

ويبقى أن نسأل أنفسنا " من الذى انتصر "؟ الذى نسى أو تناسى حقوق الشعب فى الديمقراطية ، وقبل منصباً أو شبه منصب ، متنازلاً فى مقابلة عن ضميره أو أكثره ، تاريخه أو أكثره .. أم هذا الذى تمسك بالحق والعدل والضمير والديمقراطية .. وكل المنصب واكتفى بالمنفى ؟

من الذى انتصر ؟

هذا الذى امتلك ولم يزل محبة الشعب وإحترام الوطن ..أم الذين ...

فكم يبدو المنصب تافها أمام محبة الشعب واحترام الوطن .

* * *

عزيزى خالد محيى الدين

هل تقبل اعتذارى إذ تجاسرت بالكتابة عنك ؟ إذ مهما كتبت .. ومهما أفضت .. ومهما قلت .. فأنت تستحق أكثر . وسوف تبقى يا فارسنا الرائع رمزاً لنا وقائداً وملهماً . وسنبقى دوماً مريدين فى ساحة عشقك للشعب والوطن . دمت لنا ومتعك الله بالصحة.